أمثلة من الترجمة

Alois Prinz
Bonhoeffer.
Wege zur Freiheit

Gabriel im Thienemann-Esslinger Verlag, Stuttgart 2017
ISBN 978-3-522-30455-9

صفحات 8-2، 66-54

ألويس برينس
"بونهوفر، طريق للحرية"

ترجمة شريف الصيفي

© 2018 Litrix.de

بونهوفر

دروب الحرية

ألويس برينس

© 2018 Litrix.de

مُفتتح

في غُرفة الوحي أو القرار العظيم

"Prophecy Chamber„ غُرفة الوحي، هي حُجرة الضيافة في مدرسة اللاهوت الاتحادية في نيويورك.
في الثالث عشر من يونيو عام 1939 انتقل إليها عالم اللاهوت الألماني والقس ديتريش بونهوفر. كان ديتريش يعرف المدرسة والمدينة، فقد كان هناك قبل تسع سنوات، صبيًّا حاصلاً على منحة دراسية وأراد التعرف على البلد والناس. لكن زيارته الحالية تأتي في ظروف مغايرة تمامًا. حيث اضطر إلى الفرار من ألمانيا، فقد استدعيت دفعته العُمرية للخدمة العسكرية، وكجندي سيضطر لأداء القسم لأدولف هتلر، وسيجبر على خوض حرب بالسلاح، وهذا مستحيل بالنسبه إليه كمسيحي، ومن يعترض يتهدده معسكر الإعتقال أو حتى الموت.

حالف الحظ ديتريش؛ فقد استخدم والده أستاذ علم النفس ذائع الصيت صلاته لتأجيل تجنيده، كما قدم الأصدقاء في أمريكا كل ما في وِسعهم كي يخرجوه من ألمانيا، وكان من المُفترض أن يبقى ديتريش في الولايات المتحدة، فهناك هو آمن. وفي أثناء رحلته البحرية لم يكن متأكدًا إذا كان هروبه صحيحًا. وقد كتب في دفتر يومياته:
"لو يتغلب المرء فقط على الشكوك في طريقه"[1]

لم تتبدد الشكوك، ولا حتى عندما دعاه رئيس مدرسة اللاهوت الإتحادية "هنري كوفين" إلى منزله في "ماساشوستس". كان كوفين يشعر بالفخر بالزيارة. فعلى حداثة سنه اعتبر بونهوفر الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة وثلاثين عامًا أحد أهم اللاهوتيين الألمان وكذلك بوصفه قياديًا بارزًا في المعارضة الكنسية لهتلر. وقعت هذه الكنيسة المعارضة، أو ما يطلق عليها "الكنيسة المُعترف بها" وبشكل متزايد تحت الضغط السياسي، ويقبع العديد من أتباعها في السجن أو معسكرات الاعتقال. استمتع ديتريش بالحديث مع كوفين، وشغف بالجمال الطبيعي، لكن كان لديه شعور أنه ليس في المكان الصحيح. كان يريد أن يبقى عامًا واحدًا، لا أكثر. " أنا لا أفهم، لماذا أنا هنا"[2] هذا ما دوَّنه في دفتر يومياته.

[1] ديتريش بونهوفر، يوميات رحلة أمريكا، المجلد الخامس عشر، ص 219
[2] المصدر السابق، ص 222

© 2018 Litrix.de

كانت أفكاره مع أصدقائه في ألمانيا. كانوا قد شكلوا مجتمعًا خاصًا في عزبة نائية بالقرب من "شتيتين"، (مدينة تبعد عن شمال شرق برلين بحوالي 125كم، كانت آنذاك تابعة للرايخ الألماني، حاليًا تحت السيادة البولندية) وكان ديتريش مُعلمهم، حيث كان عليه إعدادهم لمهنتهم كقساوسة، لكنه كان أيضًا بمثابة الأخ لهم. معًا أرادوا بناء مجتمع مسيحي. فقط بهذه الطريقة عبر اكتساب المرء القوى الداخلية للتشبث بإيمانه وإدارة المقاومة في دولة ظالمة. هكذا كانت قناعة ديتريش. في يونيو من عام 1938 تم إغلاق الحلقة الدراسية غير الشرعية من قبل البوليس السري. ولم يسمح ديتريش وأصدقائه أن تُثبط همتهم فواصلوا جهودهم في العمل السري.
والآن على رفاقه أن يتصرفوا بدونه. وكان هو دائم التفكير في هذا الأمر؛ ماذا حدث للشبان الذين وثقوا فيه وتبعوه؟ هل قُبض عليهم؟ هل أرسلوا للحرب؟ وهو الأمر الذي يبدو حتميًّا. أيتحمل هو المسؤولية عن مصيرهم؟

كثير من رفاق ديتريش عقدوا تسويات مع الدولة، أما هو فظل ثابتًا لا يلين. أم كانت هي مجرد مكابرة، لكونه عنيد جدًا؟ هل كانوا على صواب، أولئك الذين اعتبروه مُدعي علم ومتعجرف، ويضر الكنيسة أكثر من نفعها؟ طالما طرح ديتريش هذه الاسئلة، وكان في بعض الأحيان يعتقد أنه لا يعرف نفسه. لكنه في نهاية المطاف لم يحد عن موقفه. ربما كان ذلك على علاقة بتربيته. فعندما كان طفلاً تعلم ألا يأبه للعبارات الطنانة ويظل ثابتًا بحزم. هذا جعله مُحصنًا ضد الدعاية النازية. قوميتها ضيقة الأفق غريبة عليه، لقد سافر ديتريش كثيرًا، إلى روما وأسبانيا وأفريقيا، وشاهد عن قرب اضطهاد السكان السود في أمريكا. فكان من الطبيعي والمسلم به بالنسبة له، أن كل البشر سواسية، وإن الإدعاء بدونية الجنس اليهودي لا تتفق مع الكتاب المقدس، وكما قال: "لا يستطيع المرء أن يكون مسيحيًا واشتراكيًا قوميًا في الوقت نفسه".

غالبًا ما كانت تتم دعوة ديتريش في نيويورك إلى الرحلات والحفلات، وعندما تدور الأحاديث حول الموسيقى وتربية الأطفال كان يبدو مهذبًا مُبديًا الاهتمام كما كان دائمًا. لكن داخليًا، كان غير مكترث تمامًا بكل ما يدور الحديث عنه. فالتفكير لا يتركه، لقد ارتكب خطأ بهروبه. وحيدًا في غرفة الوحي يقوم ويقعد يُمعن في التفكير، فيما يجب فعله. كان يدخن الكثير من السجائر، وهو يدون ملاحظاته ويكتب في كتاب يومياته. ويمسك بالكتاب المقدس مرارًا وتكرارًا لعله يجد إجابه. وقد أتيحت له الفرصة لإلقاء المحاضرات ورعاية اللاجئين النازحين من ألمانيا.
هل كان يستطيع أن يرفض الحضور للولايات المتحدة؟ لقد طلب من أصدقائه الامريكيين أن يبذلوا كل ما في وسعهم في سبيل خروجه من ألمانيا. ألم يكن عديم الحكمة، جبانًا، ضعيفًا، جاحدًا، ولم يفعل سوى الهرب؟ لكن أين سيكون صالحًا حقًا ويستفاد منه؟ ألا تُنذر الأخبار الآتية من ألمانيا بالخطر؟ في دفتر يومياته كتب: "إذا صح الوضع المضطرب الراهن سأذهب إلى ألمانيا بالتأكيد" لا أستطيع البقاء في الخارج وحيدًا. بالنسبة لي لا جدال في ذلك، فأنا أعيش هناك[3]" وأراد العودة في أغسطس.

[3] المصدر السابق، ص 224

عندما لا يعود في إمكانه المكوث في غرفته، يذهب ديتريش إلى ميدان التايمز أو يتجول لساعات طويلة بلا كلل في شوارع منهاتن. كان عليه أن يُقرر، لكن كيف؟
كان أول قرار مستقل أتخذه هو دراسة علم اللاهوت. لم ينسى أبدًا ذلك اليوم عندما أعلن عن قراره أمام جميع أقرانه في الفصل الدراسي قبل فترة وجيزة من التخرج. بدايةً كان طموحًا جدًا في دراسته، وبالفعل في سِن الثانية والعشرين أنجز رسالة الدكتوراة، وفي سِن الرابعة والعشرين ألقى أول مُحاضرة له في الجامعة.
كان دائمًا الأصغر سنًا، ودائمًا كان الأفضل.

لكن مع الوقت تغير شيئًا فيه؛ بدأ بقراءة الكتاب المقدس بشكل مُختلف، ولم تكن أفكاره ولا حياته المهنية مهمة بالنسبة له، بل سؤال: ماذا يَنتظر الله منه؟
جعله هذا التحول سعيدًا، فهو يعرف الآن أنه أخيرًا يسير على "المَسار الصحيح"[4]. كان هذا المَسار دافعًا لاتخاذ قراره، بأن تكون الحياة وفقًا لقيم الكتاب المقدس. ووصف ذلك بتعبير "الخلافة". تتأسس هذه الخلافة على الإيمان، لكن تصبح المسألة سياسية حتمًا، عندما تُداس حقوق الإنسان بالأقدام.
كان ديتريش بونهوفر ومنذ زمن طويل شخص غير سياسي. فقط بوصفه عالم لاهوت ومسيحي أصبح متمردًا سياسيًا، ويمكن فهم نضاله فقط من خلال إيمانه وأفكاره اللاهوتية.

أينبغي عليه البقاء، أم يأخذ السفينة التالية المتوجهه إلى الوطن؟ كان ديتريش يوازن الأشياء؛ حسناتها وسيئاتها. كان يجب عليه أن يكون سعيدًا لنجاته من الخطر في ألمانيا. كان أيضًا على أخته زابينا الهرب للخارج بصُحبة زوجها، الذي ينحدر من أسرة يهودية، وهناك الكثير من الناس المُهددة حياتهم في ألمانيا ولا يستطيعون مُغادرة البلاد مثله. الأخرون الذين فروا أو أضطروا للفرار يدعمون الآن من الخارج المقاومة ضد نظام هتلر. هل يجب عليه أن يحذو حذوهم ويفعل ذلك أيضًا؟ فلديه العديد من الاتصالات مع الدوائر الكنسية والسياسية في البلدان الأخرى.

كانت كل هذه الاعتبارات منطقية بالنسبة للأخرين، وربما كانوا على حق. لكن بالنسبة له؟ ما هو الصواب والمناسب؟ كان ديتريش على قناعة أن المرء لا يستطيع التعرف على الدوافع الحاسمة لأفعاله، فبالتأكيد يستطيع المرء تبرير كل شئ، لكن في النهاية أي قرار هو قرار للمجهول. ويتبقى فقط الأمل والإيمان، بأن المرء توجهه إرادة أعلى، وأن يثق بهذه الإرادة. فبدون الثقة بغفران الأخطاء التي يرتكبها المرء والذنب الذي يتحمله، لا يمكن أن يقرر ولا يتصرف.

كان لدى ديتريش رهبة من المناقشة الحاسمة مع البروفيسور "هنري ليبر"، الذي دعمه وسانده أكثر من أي شخص آخر. في العشرين من يونيو التقى الاثنان لتناول طعام الغذاء. كان لدى البروفيسور ليبر تصور محدد لما سيبدو عليه مستقبل ديتريش في الولايات المتحدة. رفض ديتريش كل شئ. وخاب أمل ليبر واستاء بشدة. فلم يعد من الممكن أن يحيد ديتريش عن قراره. "ربما كان الأمر بالنسبة لي أكثر أهمية من قدرتي على تجاهله في الوقت الراهن" الله وحده يعلمه. وفي المساء دوَّن في دفتر يومياته "الغريب في الأمر أني لم أكن كامل الوضوح في كل قراراتي حول الدوافع. أليس ذلك دليلاً على الغموض، أو عدم الأمانة مع الذات، أم هي علامة أننا تجاوزنا إدراكنا، أم كليهما؟[5]

[4] رسالة لكارل فريدريك بونهوفر بتاريخ 1يناير 1935، الجلد 13، رقم 93، ص. 272
[5] دفتر اليوميات أمريكا، ص. 228

في السابع من يوليو كان ديتريش على سطح السفينة، التي ستعيده إلى ألمانيا، والتي أقلعت من الميناء بعد منتصف الليل بقليل. كان ما يزال الجو دافئًا بعد يوم صيفي قائظ، والقمر يعلو ناطحات سحاب مدينة مانهاتن. ستة وعشرين يومًا عاشها هنا، وهو غير نادم على سفره، بل هو الآن مرتاح. وصل صراعه الداخلي إلى ذروته وحُل. هو يعلم أنه تعلم شيئًا مهمًا سيؤثر فيما بعد على قراراته المستقبلية. "أغلب الظن سيكون لهذه الرحلة تأثير كبير علي" هذا ما دونه في دفتر يومياته[6].

عندما انتقل المحاضر الزائر الجديد، الذي خلف ديتريش إلى غرفة الوحي، تعجب من فوضى المكان؛ منافض للسجائر ممتلئة على الطاولة، وأوراق مكتوبة متناثرة في كل مكان.
هو لا يعلم أن ديتريش بونهوفر قد شق طريقه صَوب أهم قرارات حياته.

I.

أُغنيات حمراء وسوداء

[6] المصدر السابق، ص. 240

© 2018 Litrix.de

دق الجرس قبل عشر دقائق من موعد الطعام، وكان ذلك بمثابة علامة للأطفال لغسل أيديهم والتوجه لغرفة الطعام. كان صيف عام 1911 حارًا بشكل غير معتاد، فقد بلغت درجة الحرارة في بعض الأيام ما يقارب الأربعين درجة مئوية. كذلك كان الحال في "برسلاو" عاصمة مقاطعة "سليسيا" تقع في جنوب غرب بولندا، والتي كانت آنذاك تابعة للرايخ الألماني، توجع الناس تحت القيظ. كان بيت عائلة بونهوفر الكبير يقع على منتزه "شايتنيجر"، وعلى مقربة من أحد روافد نهر "أودر"، وليس ببعيد عن العيادة المُشيدة حديثًا، حيث يعمل الأب كارل بونهوفر طبيبًا.
كان أطفال بونهوفر يلعبون في الحديقة في ظل الأشجار، وها هم يركضون الآن لداخل البيت. فقط واحد هو الغائب، ديتريش البالغ من العمر خمس سنوات. أخيرًا بعد تكرار المربية النداء عدة مرات يظهر من بين الشجيرات برأس محمر بفعل لسعات البعوض المزعجة. كانت كلمته المُفضلة "غير معقول"[7] وفي كل مناسبة كان يؤكد في ذلك اليوم كيف أن القيظ لا يحتمل وكيف أن العطش لا يصدق. كان قد وجد في تلك الحديقة الكثيفة بقعة ظل وكان يلعب هناك، وعلى مضض لبى نداء المربية. فلم يكن هناك استثناء بالنسبة له. فثمة قواعد صارمة في بيت بونهوفر يلتزم بها الجميع.

في غرفة الطعام الكبيرة جلس الأطفال الثماني جميعهم على المائدة الطويلة: كارل فريدريك، البالغ من العمر اثنتا عشر عامًا، الزعيم بلا منازع على جمع الأطفال، فالتر الأصغر منه بعام والذي يفضل قضاء الوقت بين أحضان الطبيعة والتعرف على جميع الحيوانات والنباتات. وبجانبه جلس كلاوس البالغ من العمر عشر سنوات، والذي كان يعتبر في العائلة " الفيلسوف الصغير". أورسولا البالغة من العمر تسع سنوات أكبر وأجمل الفتيات، وأختها الأصغر منها بعام كريستينا، التي يدللها الجميع باسم "كريستيل". زابينا الأخت التوأم لديتريش، والتي تؤكد بفخر مثله أنها جاءت للعالم بعده بعشرة دقائق في الرابع من فبراير 1906. وقبل عامين ولدت أصغر الأطفال، سوزانا الصغيرة. كتب الأب كارل بونهوفر في كتاب العائلة بعد ولادتها: "رغم كون عدد الأطفال ثمانية، الذي يبدو مُدهشًا في الزمن الحالي، فإن لدينا الإنطباع أنه ليس بالعدد الكبير، فالمنزل واسع، والأطفال ينمون بشكل طبيعي، ونحن الأبوان لسنا من كبار السن، لذا سنسعى ألا نفسدهم بالتدليل وأن نجعل منهم شبابًا ودودًا."[8]

برز ديتريش واقفًا بين أخوته. قد يظنه المرء أنه إحدى الفتيات. ففي حين أن أشقائه يشبهون الأب بشعرهم الداكن القصير ووجوههم النحيلة وأجسادهم غير البدينة الصحية، كان ديتريش يشبه الأم بشكل واضح، فقد أخذ منها بشرته الفاتحة وعينيه الزرقاوين والشعر الأشقر الطويل المُجعد الذي يؤطر وجهه الناعم. في صورة قديمة للعائلة بدا كما كان معتادًا للأطفال آنذاك برداء أبيض كفتاة صغيرة مائلة للبدانة. الآن يرتدي سروالاً جلديًا وثوبًا أزرق اللون يشبه المريلة خاطته الأم بنفسها.

وتأمر السيدة باولا بونهوفر بتقديم الطعام، فيما تتأكد المربية "ماريا هورن"، والتي يناديها الجميع "هورنشن" (تصغير هورن، والتي تعني قرن صغير ويطلق أيضاً على نوع من الكعك هلالي الشكل) من أن الأطفال يتصرفون بشكل صحيح على المائدة. كانت ماريا هورن قد جاءت للمنزل بعد فترة وجيزة من ولادة ديتريش وزابينا، وأصبحت تنتمي للعائلة بالفعل. وفي الوقت المحدد لتناول الطعام يظهر الأب كارل بونهوفر. كان رجلاً كثير المشاغل، فهو يقود عيادة الطب

[7] زابينا لايبهولتس- بونهوفر: ماضي، تجرب، انتصار، مصير عائلة بونهوفر، جوترسلو: جرد مون 1972، ص. 52
[8] زكريات كارل بونهوفر- تدوين للعائلة، في يورجنتس تسوت وأخرين: كارل بونهوفر في عيد ميلادة المئوي 31 مارس 1968، برلين، هايدلبرج، نيويورك، 1969، ص. 107

© 2018 Litrix.de

النفسي القريبة، وكأستاذ في الجامعة يقوم بالتدريس فيها. وعلى الرغم من إلتزاماته الكثيرة فهو يحرص مشاركة الأسرة تناول الطعام.

بلا شك كانت باولا بونهوفر روح العائلة. فهي تقود بحكمة عدد كبير من العاملين، بما فيهم مربية الأطفال والمُعلمات والخادمات والطباخة، كما تُشرف على تربية الأطفال وتنظيم احتفالات الأعياد والرحلات.
كلاوس شقيق ديتريش الأكبر، الذي لم يكن "فيلسوفًا صغيرًا" فحسب بل أيضًا مُهرجًا ساخرًا، شبه فيما بعد الأسرة بالشركة التي تعمل وفقًا لدستور محدد. تشغل فيها الأم منصب المُدير الأداري الوحيد، والأب هو مالك الشركة[9]. وفي الواقع لا يحدث شئ لا يرغب فيه كارل بونهوفر. كان يكفي أن تقول الأم: "بابا لا يحبذ هذا"، وبذلك تُحسم كل مناقشة[10]. وفي نفس الوقت كان كارل بونهوفر رجلاً حسن الطوية ومتسامحًا. جعلته حياته المهنية كطبيب نفساني قادرًا على التعامل مع الناس بتفهم وتعاطف. ومع ذلك كان رَجُل عِلم، يرفض كُل معرفة إن لم تكن مبنية على تصورات أكيدة ومُثبتة.
الباحثون النفسيون أمثال سيجموند فرويد من فيينا، الذين بحثوا عن الدوافع الغامضة للإنسان في اللاوعي، قابلها بقدر كبير من الشكوك إن لم يَكن الرفض، فلم يكن يرغب في التوغل في تلك المناطق المظلمة من النفس البشرية، وعلى كل حال، فإن من فعل ذلك لم يكن بالنسبة لكارل بونهوفر ليؤخذ مأخذ الجد بوصفه أحد الدجالين، الذين يريدون شفاء الناس عن طريق فن قراءة المجهول بواسطة أوراق الكوتشينة. كانت لشخصية الطبيب والمُعالجين بالنسبة له الأهمية الحاسمة في علاج المرضى النَفسيين. فمن أراد أن يكون طبيبًا نفسيًا حاذقًا، عليه أن يُبدي تفهمًا لمن يفكرون بطريقة مُختلفة إلى جانب إستيعابه للمعارف الطبية المهنية، ولكن قبل كل شئ يجب أن يكون قادرًا على الحفاظ على المسافة الضرورية بين المُعالج والمريض، وأن تكون مشاعره الخاصة تحت السيطرة. كان "كَبح الانفعال" هذا كما وصفه كارل بونهوفر، سمة لا يُمكن الإستغناء عنها بالنسبة له. وكان لا يريد أن يتصرف أمام أطفاله بوصفه مُربيًا، بل من خلال تأثير قدوته الحَسنة.

كانت القدوة الحسنة لكارل بونهوفر نفسه في أبيه فريدريك بونهوفر، الذي توفى قبل عامين فقط. كان يعمل موظفًا للشئون القانونية في منطقة "شفابن" (جنوب غرب ألمانيا بين شتوتجارت ومدينة أولم)، وفي أخر سنوات حياته الوظيفية تقلد رئاسة المحكمة الإقليمية في مدينة "أولم". وكان أبنه كارل مُعجبًا بشكل دائم ببساطة أبيه وإستقامته.
لم يبغض فريدريك بونهوفر شيئًا أكثر من كراهيته للبشر، الذين أرادوا لأنفسهم أن يكونوا أكثر مما كانوا عليه. فقد كان رافضًا لكل ما هو مُتكلف غير طبيعي وسطحي وضحل. وقد بدأ بالفعل باللغة. فقد كتب كارل بونهوفر في ذكرى والده "لم أسمع منه أبدًا عبارة طنانة واحدة"[11].

لا يُسمح لأطفال بونهوفر بالحديث فيما بينهم على مائدة الطعام، ويسمح لهم فقط بتوجيه الكلام للأبوين عندما لا يكونا منهمكين في حديث ما. ويهتم الأب بأن حديثهم ليس ثرثرة فارغة، بل هم يفكرون أولاً فيما يريدون السؤال عنه أو الحكي، وكذلك كيفية استخدامهم للكلمات البسيطة والمناسبة. أحيانًا يمدهم الأب ببعض المصطلحات التي عليهم تحديد مفهومها، وإذا كان غير راضٍ بالنتائج، لا يتكلم نهائيًا، فقط يرفع حاجبه الأيسر للأعلى وينظر لمن في مواجهته بنظارة مرفوعة لأعلى. يستشعر الأطفال نظرته برهبة، حتى عندما ينظر بطريقة ودية للغاية. كان احترام الأب كبيرًا للغاية،

[9] ديتريش بونهوفر، نثرات من تيجيل، المجلد السابع، ص. 228
[10] ماضي ... ص. 25
[11] مُذكرات كارل بونهوفر، ص 30

وإن كان أحيانًا له تأثير مخيف. كما صرحت زابينا شقيقة ديتريش فيما بعد، بأن الطفل كان يقف أمام الأب مرتبكًا ومُحبطًا، وقالت، كان من الأفضل عدم قول شئ خوفًا من الخطأ.

لم يكن كارل بونهوفر الأب الذي يمكن لطفلٍ أن يجلس على حِجره، ويربت عليه ويُداعبه أو يُعطيه اسم تدليل. هذا لا يعني أنه لم يكن يهتم بأطفاله ويُسهم بنصيب حَيوي في تربيتهم. كان يعود للبيت بعد يوم عمل طويل مُتعبًا. يقرأ عليهم شيئًا ما ثم يجلسون جميعًا حوله في غرفة المعيشة الكبيرة المُكتظة بقطع الأثاث الموروث، بالإضافة إلى اللوحات العديدة التي تُزين الجُدران. منها لوحة كبيرة الحَجم لمنظر طبيعي لجبال الألب، والتي تعود إلى جد الأم النبيل "ستانيسلاوس"، الذي كان حاكم مدينة "كالكرويت" التابعة لولاية ساكسونيا شرق ألمانيا. وفي مكان مميز عُلقت لوحة تحمل بورتريه لجدها من ناحية الأب "كارل أوجوست فون هازى"، الذي كان أستاذًا في علم اللاهوت، وكان قد سُجن في شبابه لمدة عام بسبب آرائه السياسية الراديكالية. كان أطفال بونهوفر يعرفون تاريخ هؤلاء الأجداد منذ نعومة أظافرهم. كان هناك في أسرة الأم كما الأب العديد من الرجال الأجلاء: أساتذة جامعات، ضُباط، فنانون، أطباء، أعضاء ورؤساء مجالس بلدية وعُمَد، ومع ذلك لم يكن هذا النسب لكل من كارل وباولا بونهوفر سببًا للفخر على الرغم من أن شجرة العائلة معلقة في الردهة الخارجية. لكن تبجيل الأسلاف المُبالغ فيه كان يتناقض مع تواضعهما البرجوازي. بل على العكس من ذلك كان الضحك يدور سرًا في كل مناسبة يُثني فيها أحد الأعمام على أمجاد عائلة "فون هازى". ومع ذلك شب الأطفال على وعي بأنهم ضمن تقليد بورجوازي قديم، وكان يترتب على هذا الالتزام غير المُعلن مواصلة الحفاظ على هذا التقليد، بتحقيق إنجازات مُهمة في المستقبل والطموح لأعلى المناصب. وكما وصف ديتريش بونهوفر مرة، أن أي شخص متجذر بمثل هذا التقليد يتم تحديد أفكاره وأفعاله من خلال هذا التقليد، حتى قبل أن يَعي هذه السمة.

كان كارل بونهوفر يريد قضاء بقية حياته في مدينة "برسلاو"، بعد أن كان ممتعضًا في البداية عند قدومة شابًا كطبيب مبتدئ، فقد بدت له "برسلاو" نائية جدًا عن مسقط رأسه في "شفابن"، فهي تكاد تقع في "بولاكاي" (سُبة دارجة تطلق على بولندا). فقط عندما تعرف على زوجته المستقبلية تأقلم مع المدينة وأصبح من مواطنيها. بعد قرانه من زوجته وميلاد الطفل الأول ترك برسلاو لفترة قصيرة، حيث عُرض عليه تبوأ مناصب في مدينة "كونجسبرج" في شمال شرق ألمانيا (تحت الإدارة الروسية منذ عام 1946 باسم كلينينجراد) وفي مدينة هايدلبرج جنوب غرب ألمانيا. وفي النهاية قرر العودة إلى "برسلاو"، فقد كانت ظروف العمل التي عُرضت عليه فيها تتماشى بشكل تام مع رغباته، وكان المنزل الفسيح الذي يقع بجوار غابة صغيرة من أشجار البتولا مناسبًا للعائلة النامية. تمتع الأطفال بأكبر قدر من الحرية، فقد تركت الحديقة تنمو وتكبر بحيث استطاع الأطفال بناء كهوف وأماكن للاختباء فيها كما يحلو لهم. وكان للبيت ملعب تنس يُملأ بالماء شتاءً ويترك للتجمد ثم يقومون بالتزلج على الجليد. وكان للفتيات غُرفة خاصة بهن للعب بعرائسهن.
وفي موضع آخر توجد منضدة للنجارة وعدد كبير من أدوات النجارة كي يستطيع الأولاد الطرق والقطع والنشر.
وسُمح للأطفال بالاحتفاظ بالسحالي والثعابين والفئران والطيور والخنافس والسناجب في حجرة من الخشب، كانت مخصصة في الماضي للعربات والخيول.

وتم تأثيث غُرفة من غُرف المنزل للدروس، بسَبورة ومكاتب جيدة للمذاكرة. وقد كانت السيدة بولا بونهفر قد تلقت في صباها تدريبًا كمعلمة وأبدت اهتمامًا مُتزايدًا بطرق التربية البديلة والقليل من الطريق التقليدية. فقد كانت تقول، كان يتم قصم ظهور الأطفال مُبكراً، لذا أصرت على إعطاء الأطفال الدرس الأول بنفسها. ولهذا الغرض أخذت ايضًا

أطفال العائلات الصديقة الذين يماثلون أعمار أطفالها، وفي بعض الأحيان كان يتجمع ثلاث فصول صغيرة، تقوم بالتدريس لهم، فصل تلو الآخر. مدعومة في ذلك من قبل المُربية ماريا هورن. عدا مادة الديانة، لم يُسمح لهورنشن تدريسها، واحتفظت بها لنفسها.

كانت بولا بونهوفر ابنة أستاذ علم اللاهوت كارل الفريد فون هازى، وقضت في صباها بعض الوقت في جماعة مورافيا إحدى فرق البروتستانت، التي كانت على درجة كبيرة من التدين وتحرص على الإيمان المسيحي النقي وتُعلي من قيمة الأعمال الخيرية. كذلك نشأت المربية ماريا هورن في تلك البيئة الإيمانية الصالحة. في منزل بونهوفر، حيث كان موقف الأب حاسم وقاطع، كانت كل التعبيرات العاطفية القوية مُستنكرة، كان يجب على هورنشن بتقواها توخي الحذر، لكن ولكون أحد مبادئ الأب هو احترام آراء الآخرين وأنماط حياتهم، كان يتم من آن لأخر استيعاب حماس ماريا هورن الديني المتطفل بعض الشئ. الأطفال الذين أحبوا المربية هورنشن بحرارة وبعمق، كانوا مُتقبلين محبتها الحماسية للرب، وتعلموا منها كثير من تراتيل وصلوات فرقة مورافيا.

هل اضطرت باولا بونهوفر إلى إظهار ضبط النفس؟ يقول "ابرهارد بتجى" أحد أصدقاء ديتريش فيما بعد، أن المُثل الدينية لشبابها ظلت تحت السطح في أثناء حياتها الزوجية[12]. ومع ذلك كانت باولا بونهوفر هي المُكمل المثالي لزوجها. القرب الذي لا يرده الاب ولم يسمح به، وجده الأطفال عند الأم، حتى وإن كان قربًا منضبطًا. فيمكنهم المجئ إليها بإهتماماتهم ومصاعبهم. كانت بهجة حياتها وحيوتها مُعديتين. ويتبدى إبداعاها في الاحتفال بالعيد وعند ابتكار ألعاب جديدة. فهي لا تهن ولا تُفتُر، وكان مخزونها من الأشعار والأغنيات لا ينضب.

كانت الأم تروي القصص التوراتية لديتريش. وكانت تُريه الرسومات من الكتاب المقدس المصور. الأمر الذي حَفز خياله وصياغة الأسئلة في رأسه وطرحها، مثل هل الرب يتناول طعام الغذاء، وفيما إذا كان الرب يحب منظف مداخن المنازل.[13] وكانت التراتيل الكنسية التي تعلمها من أمه والمربية هورنشن تؤثر فيه بعمق ويغنيها باندماج، حيث يميز بين الأغنيات الحمراء ذات نغمات المُبهجة والأكثر حميمية، والتي كان يفضل غنائها، وبين الأغنيات السوداء، التي تبدو مُهيبة وأكثر جدية. يتسنى لديتريش من خلال حجرة من حجرات المنزل رؤية المقبرة القريبة، حيث يسير من وقت لآخر موكب جنائزي صوب قبر مفتوح. وفي الليل عندما يرقد في سريره كان يتخيل نفسه ميتًا على السرير، لتتجمع الأسرة كلها حوله، ويفكر في الكلمات الأخيرة التي عليه قولها.[14] كانت فكرة لطيفة لكن بعدها يشعر بالخجل من هذا التصور المسرحي، ومن رغبته أن يكون بؤرة الاهتمام، المرفوض بالتأكيد من الأب.

كان من الصعب على ديتريش إيجاد مكان له بين أشقائه. في البداية كان قد لعب مع أخواته في غرفتهن بدورة المُفضل كأب صغير. ولاحقًا عندما لم يعد يرتدي مريلة الأطفال أراد الإنضمام إلى الأخوة الذكور، لكن كان من الواضح أنه لا يبدو مختلفًا عن كارل فريدريك وفالتر كلاوس فحسب، بل مختلفًا في المعتاد والمألوف. كان يشعر بالخجل لكونه في أغلب الأحيان ليس مقدامًا، كما ينبغي لصبي. فكان يخاف من بابا نويل، الذي لم يكن في حقيقة الأمر سوى الأم متنكرة وقد غيرت صوتها. ورهب الماء عندما كان عليه تعلم السباحة، وعندما ثبتوه في الماء بساق سنارة، صرخ صراخ هيستيري حتى تركوه مره أخرى. ولأن شقيقته التوأم زابينا خاضت في الماء بشجاعة اقتنع بإعادة المحاولة.

[12] إبرهارد بيتجى: ديتريش بونهوفر سيرة حياة، ميونخ 1986، ص. 59
[13] ماضي.. ، ص. 92
[14] ديتريش بونهوفر/ محاولة أدبية حول موضوع "الموت"، المجلد 11، رقم 22، ص. 373

كانت العائلة تقضي عطلتها في الصيف في جبال جلاتسر جنوب برسلاو على الحدود مع مورافيا وبوهيميا اللتان كانتا آنذاك جزء من النمسا– المجر. كان كارل بونهوفر قد اشترى منزلاً بالقرب من منطقة "فولفسجروند" (جنوب غرب بولندا اليوم). كان المنزل يقع على مُنحدر غابة ويمتد أمامه مرج مُعشب وجدول ماء صغير وشجرة مثمرة ضخمة، بُني عليها منصة صيد عالية بمقعد لمراقبة الحيوانات البرية. للعائلة صور التقطت لها أمام الشجرة، كارل وباولا بونهوفر يقفان على الأرض المُعشبة تحت الشجرة. الأب مع سوزانا الصغيرة فوق كتفه الأطفال الآخرون على منصة الصيد العالية فوق الشجرة يتوسطهم ديتريش بجدائل شعره الأشقر الفاتح.

كان كارل بونهوفر مثل أبيه، شغوفًا بالتجوال، وكما كان أبوه في أثناء التجوال يريه ويحدثه شارحًا عن كل الاشجار والنباتات، تعرف أطفاله منه أيضًا على كل ما ينمو في الغابة ويُزهر في المروج. وما تعلم منه أيضًا وأثار اعجابه بعمق اتزان عقليته في كل شئ يفعله أو يقوله، منها ألا يعلن المرء عن مشاعره ومتاعبه بشكل علني، بل الأفضل الاحتفاظ بها لنفسه. وألا يرفع المرء احتياجاته ورغباته الخاصة في موقع الصدارة، والتفكير في الآخرين. بالتأكيد كان تأثير الأاب هو الذي جعل من ديتريش فتًى شهمًا وبشكل خاص في تعامله مع شقيقته التوأم زابينا. عندما نزلوا مرة إلى أسفل المنحدر في الغابة مد يده لها معاونًا حيث كان من السهل الانزلاق. وعندما كانوا في المرج يجمعون التوت الشوكي ملأ سرًا سلتها كي لا تكون أقل منه.[15]

لم يخطر ببال كارل بونهوفر مغادرة برسلاو مرة أخرى. لكنه في أحد الأيام تلقى عرضًا للانتقال إلى برلين ليخلف أستاذ الطب النفسي والعصبي تيودور تسهين، الذي استقال من منصبه ليكرس نفسه للفلسفة الشغوف بها. على الرغم من كون المركز الوظيفي في مستشفى "شاريتيه" ببرلين، أفضل مستشفى في تخصصه، لم يكن كارل بونهوفر وَلعًا بالترقي الوظيفي. لكن بعد مناقشة طويلة مع زوجته أكتسبت الفكرة وزنًا إضافيًا، بأنه سيكون للأطفال المزيد من الإمكانيات للترقي في العاصمة الألمانية. وتم سؤال الأطفال وكانوا موافقون.

هل كان ديتريش موافقًا؟ أو ربما كان حزيناً جدًا؟ هل كانت نظرة الأب المُرتابة كافيه لجعله يتخلى عن هذه المُبالغة اللُغوية؟ أعترف ديتريش بعد سنوات عديدة في نهاية حياته، أنه تغير فعلاً لأول مرة عندما أدرك شخصية أبيه. حدث هذا التغيير لانه لم يُسمح له بالاستسلام بسهوله لمشاعره وتتبع دوافعه الأولى، بل أقيمت العوائق أمامه. في في أحد الخطابات كتب: وجدت أن أقوى العوامل التربوية الروحية في أسرتنا، أنه يتم التغلب على الكثير من القيود (استنادًا إلى الموضوعية والوضوح والفطرة واللباقة والبساطة ... وما إلى ذلك) قبل أن نتمكن من الإستقرار على مواقفنا وإبداء آرائنا [...]. في بعض الأحيان كان الأمر يستغرق وقتًا طويلاً قبل أن يتم التغلب على مثل هذا العائق. ويعتقد البعض بأنه يمكن الوصول للنجاح بطرق أرخص وأسهل كثيرًا، بالتحايل ببساطة على هذه العقبات.

وسوف يظل ديتريش متمسكًا بالقناعة أن على المرء ألا يستخف ويستسهل، بل يجب عليه أن يتغلب على العقبات. ومن ناحية أخرى تعلم ديتريش من أمه ومن المربية هورنشن أنه يمكن للمرء التعبير بحرية وبدون ضغوط عن مشاعره في الغناء والتراتيل والأشعار. أيجب فصل المشاعر عن العقل؟ هل يجب للمشاعر أن تبقى مستترة؟ أم أن المشاعر والعقل ينتميان لبعضهما البعض؟

[15] ماضي .. ، ص. 54

من صفحة 54 إلى صفحة 66

V.

الأرضية الصلبة والإله البعيد

كانت برلين، التي عاد إليها ديتريش بونهوفر قادمًا من إيطاليا عاصمة محمومة، هي ثالث أكبر مدينة في العالم، تعج بمقاهيها التي لا تعد ولا تحصى، والحانات والنوادي الليلية والمسارح ودور عرض السينما ونوادي وأقبية موسيقى الجاز والمطاعم والبارات، حيث تُرقص رقصة "شارلستون"، أحدث الرقصات الوافدة من أمريكا.
مرح الحيوية الفياضة مفعم بالمزاج القدري والخوف العميق من المستقبل.
صاغ الكُتاب أمثال إرنست هيمنجواي شعار "Lost generation" (الجيل الضائع).
فقد ضاع جيل كامل من الشباب، عانى من انهيار العالم القديم الأبوي بعد الحرب العالمية (الأولى) وأصبح مشوشًا. عن هذا الشباب الضائع كتب "كلاوس مان، الذي عد نفسه متحدثًا لهذا الجيل الأرض تحت الأقدام، وهم بلا قائد، وجدوا أنفسهم عاجزين بين كل المتطرفات.[16] كانت المدينة بالنسبة لديتريش بونهوفر المكان الذي فيه لمس بوضوح ما يفتقده الناس وما يتوقون إليه. فخلف هذه الرغبة في الترفيه والتغيير رصد بحث يائس عن مغزى الحياة. وظمأ عظيم، يجب إخماده عبر الترويج الوقح والصارخ لوسائل وطريق جديدة. في قلب مُدننا الكبيرة، هكذا قال، في أكبر معترك وحشي ثمة حشد كبير من البشر يخيم عليه بؤس الوحدة والغربة والتشرد.

حصل ديتريش من هذا الصخب الوحشي على القليل وعاد إلى رَحم الأسرة، إلى العالم المحصن في منزل أبويه في حي الأساتذة الأكاديمين في "جرونفالد". بقي القليل من ديتريش، الذي كان منذ عدة أسابيع قليلة خلت يتجول مفتونًا في شوارع روما، هيمانًا في ألوان البحر وسماء الجنوب. كانت حياته الطلابية مكرسة بالكامل للدراسة، وبسبب الجلوس لفترات طويلة زاد وزنه، وهو الأمر الذي أدى لملاحظات ماكرة من أخواته. ولتلبية أحاسيسهن بالجمال[17] قام ديتريش بالنزهات ومارس القليل من الرياضة وأحيانًا كان يصطحب إحدى أخواته إلى المسرح أو مع جدته إلى المسرح الغنائي (أوبريت). كانت الجدة يوليا بونهوفر متعلقة بحب كبير بديتريش، وكانت قد انتقلت من "توبنجن" إلى برلين وتعيش الآن مع العائلة.[18]

كان يجتمع من وقت لآخر في الفيلا الكبيرة التي تقع في شارع "فاجنهايم" أربعة أجيال عُمرية. أورسولا، أكبر البنات كانت قد تزوجت من "رودجر شلاير"، محام وأبن لأحد زملاء الدراسة القدامى لكارل بونهوفر. ولأنها لم تكن قد وجدت بعد شقة مناسبة، فقد عاش الزوجان الشابان مع طفلهما الأول "هانز – فالتر" في الطابق الأخير من المنزل. كريستينا، والتي ينادونها كرستيل كانت مخطوبة من زميل دراستها "هانز فون دوناني"، وكذلك خطبت زابينا توأم ديتريش من المحامي جرهارد لايبهولتس وينادونه "جرت". في البداية لم يكن الأبوين سعداء بهذا الارتباط. قال الأب لزابينا: " ماذا أنتِ فاعلة تجاه الوقائع". كان كارل يحب الشاب لايبهولتس، لكنه كان قلقًا بشأن حياته المهنية، لكونه ينحدر من أسرة يهودية.

كان لكارل بونهوفر تجاربه مع مُعاداة اليهود في ألمانيا، فقد حاول عبثًا دعم زميل شاب يهودي، فاصطدم مع مواقف متحيزة عنيفة مُعادية للسامية. بالنسبة لديتريش كانت فكرة الخطوبة أو حتى الزواج غير مطروحة. فقد كان ما يزال صغير السن وغير مُستعد لتكوين أسرته الخاصة. كان ودودًا وهادئًا لا يدع أحدًا يقترب منه. فلم يكن له بعد صديق حقيقي، ناهيك صديقة. في أحد كرنفالات العائلة تنكر ديتريش في هيئة كيوبيد إله الحُب عند الرومان، وكان يطلق السهام على المدعوين. لكن سهام الحب لم تصيب كيوبيد نفسه.

[16] أوفه نيومان: كلاوس ما،، هامبورج 1984، ص. 23
[17] رسالة إلى بولا بونهوفر بتاريخ 5 اغسطس 1924، ديتريش بونهوفر، المجلد 9، رقم 82، ص. 142
[18] ديتريش بونهوفر، المجلد 10، ص. 469

كانت الأسرة بالنسبة لديتريش بمثابة الأرض الصلبة تحت القدمين، لكنه في الوقت نفسه كان يتوق " لكسر" ما في حياته.[19] يدفعه مرة لترك هذه الأرض الصلبة. وكما قال مرة "الخروج من دائرة الحياة المعتادة والوقوف على قدميه".[20] كان هذا واضحًا وبشكل خاص بالنسبة لدراسته. فحتى الآن فعل ما كان متوقعًا منه في الأسرة ومن أشقائه ومن نفسه أيضًا، أي إتمام الدراسة بسرعة وبتفوق. كان ديتريش بالمقارنه مع أقرانه الطلاب "مُحلق في الأعالي". لكن ألم يختار دراسة علم اللاهوت لانه أراد أن يُعمق إيمانه الشخصي وخلق وجهة نظر خاصة له؟

كانت جامعة برلين قلعة لعلم اللاهوت الليبرالي غير المتعصب، وكان أيقونتها أدولف فون هارناك المُحترم والموقر من الجميع يدعو للارتباط الوثيق بين اللاهوت والعلم. وفقًا لعقيدته، يبقى كل شئ غير إنساني وانفعالي وبلا وعي ما دام لا يُدرك وُينقى بواسطة العقل. بالنسبة له، لا وجود لعلم لاهوت يفصل نفسه عن العقل. كان هارناك قد جاوز السبعين وغادر مجال العمل الأكاديمي، لكنه ظل يعطي محاضرة وندوة دراسية لمجموعة مختارة ومحدودة، وقد دُعيَ ديتريش إلى هذه المجموعة، وأُعجب المشاركون بمعارفه من اللقاءات الأولى.

كان أدولف فون هارناك يعيش مع أسرته أيضًا في حي الأساتذة في "جرونفالد" بجوار منزل عائلة بونهوفر مباشرة، وكان ديتريش يرافقه عادة وهم في طريقهم للجامعة مهرولين. كان هارناك بالنسبة لديريش تجسيدًا، لكل ما تعلمه في منزل والديه: الإيمان بالعلم، والإرتياب في الشعارات الرنانة، وأهمية الدين في محيط الطبقة الوسطة المتعلمة. تعلم ديتريش أيضًا مع هارناك كيفية التعاطي مع الكتاب المقدس بطريقة علمية. بالنسبة لعلماء اللاهوت الليبراليين أمثاله، لم يكن الكتاب المقدس كلمة الله، بل كانت نصوصًا صيغت من قبل بشر في زمن معين. لذلك يجب التعامل معها كالتعامل مع الوثائق التاريخية والبحث في التأثيرات ذات الصلة بمقتضيات العصر، لكي نستطيع الكشف عن الرسالة المسيحية الأصلية. وأثبت ديتريش أنه تلميذ نجيب. أعجب هارناك أشد الإعجاب ببحث علمي بأن عبر عن أمله في أن يصبح ديتريش ذات يوم أستاذًا لتاريخ الكنيسة. كان الحصول على هذا الثناء لأبن الثامنة عشر من أحد جهابذة العلم، مثل هارناك بمثابة نيل لقب فارس.[21] لكن هل كان هذا الاتجاه الوظيفي هدفًا له؟

كان على هارناك أن يُفاجأ وأن يكون جد ثائر، عندما أظهر طالبه النموذجي ديتريش فجأة وجهًا مختلفًا، فقد قام ديتريش بعمل أعتبر آنذاك من قبل المشاركين في الحلقة الدراسية أمرًا من الصعب تصوره، ويتناقض مع المقام الرفيع الذي منحه له هارناك. وعندما أجاب البروفيسور بكل أدب لم يكن هذا الطالب العنيد راضيًا، بل كرر تناقضه. فقد دافع ديتريش حقًا عن أراء أحد علماء اللاهوت يُدعى كارل بارت، وكان على نزاع مرير مع هارناك، الذي يتهمه الأخير ويحمله مسئولية تراجع علم اللاهوت.

كان كارل بارت إلى حد كبير عكس هارناك في كل شئ؛ قبل أن يصبح أستاذًا في جامعة جوتنجن كان قسًا لسنوات طويلة في بلدة صغيرة تدعي "سافن فيل" في مقاطعة "أراجاو" على الحدود السويسرية الألمانية. كان يتوقع منه هناك أن يُهدئ نفوس عمال المصانع في ظروفهم البائسة. لكن بدلاً من ذلك، انحاز لصفوفهم، وأتُهم من قبل أعدائه بوصفه "القس الأحمر". غيرت هذه التجربة صورة الرب لدى "بارت" بشكل جذري. فقد كان يتعذب كل يوم أحد بالسؤال،

[19] رسالة إلى إبرهارد بتجى بتاريخ 22 إبريل 1924، ديتريش بونهوفر، المجلد 8 رقم 135، ص. 397
[20] ديتريش بونهوفر، دفتر يوميات أسبانيا، ص. 19
[21] رسالة إلى كارل وباولا بونهوفر بتاريخ 17 نوفمبر 1943، المجلد 4، رقم 72، ص. 184

© 2018 Litrix.de

فيما إذا كان لديه شيئًا حقًا يقوله للناس في عظته. على كل حال، لم تكن لديه الرغبة في التحدث لهم عن الله، الذي استُحوذ عليه من قبل البشر، كي يكون غطاءً أخلاقيًا لأفعالهم. وما كان مُستنكر بشكل خاص بالنسبة لبارت، وجود الكثير من من رجال الكنيسة وعُلماء اللاهوت ضمن أسوأ دُعاة للحرب. فبدلاً من الوقوف على مسافة بين القوى والدفاع عن قيم الكتاب المُقدس، وهبوا الحرب قدسية عُليا، وباركوا المدافع، وقَدسوا القتل، وشَيطنوا أعداء ألمانيا. بكلمات أخرى ، صنعوا إلهًا آخر يخدم مصالحهم الخاصة، لا علاقة له بإله الكتاب المُقدس، حسب رأي بارت.

أراد "بارت" في كتاباته العديدة حماية الله من الإساءة الإنسانية، وذهب إلى حد الإدعاء بأن ثمة تضاد بين البشر والرب لا يمكن تجاوزه. ولن يتمكن البشر التغلب على هذه الهُوة، فقط الله يستطيع فعل ذلك، بأن يتحول لأنسان بمشيئته أو كما يُقال لاهوتيًا، فيتجلي في يسوع وفي نصوص الكتاب المُقدس. كما قال ديتريش بونهوفر مرةً: "لا ثمة طريق لإنسان صوب الرب، فقط يوجد طريق للرب صوب الإنسان. فالإنسان يبقى فقط المُستقبِل والمُنصت.[22]
أما الإدعاء بأن الإنسان يمكنه التحكم في الرب فهذا بالتأكيد خطيئة كبرى. وكذلك بالعقل والعلم لا يستطيع الإنسان السيطرة عليه. عند الحديث عن الرب يجب على المرء في اللحظة ذاتها أن يشير إلى أنه لا يستطيع التحدث عن الرب. فالتفكير والحديث عن التناقضات عند هذا الحد هو ممارسة ديالكتيك اللاهوت.

إستُقبلَت أفكار "كارل بارت" بين الشباب بشغف، ليس فقط بين علماء اللاهوت، بل إن ابن عم ديتريش "هانز كريستوف فون هازى" الذي يدرس الطبيعة في جامعة جوتنجن كان مُعجبًا بأفكار بارت، حتى أنه بَدَّل دراسته وانتقل لدراسة علم اللاهوت. كانا في تجوالهما المشترك يتحدثان هو وديتريش بعمق عن "مغوار الرب السعيد" هذا، الذي يستمع يوميًا لموسيقى موتسارت ويحب غليونه والنساء، وبالنسبة لهما لم يكن ثمة شيء أسوأ من الأفكار السيئة والخطب الوعظية المملة. كان بارت بالنسبة لديتريش بمثابة المُخَلِص، فقد كان عليه دومًا الدفاع عن اختيار حياته المهنية أمام الأب والأخوة والعلم. كان بارت قد حرر عالم الرب من جميع الارتباطات والتبعية. من أجل الحصول على تصديق بكونه عالم لاهوت، لم يعد على المرء إثبات علميته أو يثبت فائدته للمجتمع. فقط أن يُنادي بكلمة الرب، ستكون هذا بمثابة المسوغ الكافي. لم يستطع ديتريش التعامل مع وعيه الذاتي الجديد. إن هو اتبع "بارت" فعليه بالطبع يومًا ما أن يضع المسيحية البرجوازية التي يعرفها منذ الصغر موضع التساؤل.

لم يكن ذلك هَين، فقد كان ديتريش متجذرًا عميقًا في أسرته وقيمها، ولم يكن ثمة سبب للتمرد ضدها، ولا سيّما وأن والديه أهتما بدراسته وكان يُثمن نصائحهما. حتى أمه كانت تقرأ الكتب التي كان ديتريش مهتمًا بها لكي تعرف بما يهتم ابنها فكريًا. كان الأب يعرف كل الأساتذة، الذين درس ديتريش على أيديهم، وكان يستفسر منهم عن مدى تقدمه. لم يستطع ديتريش التخلص من "الأرض الصلبة" لأصله ولم يكن يريد ذلك. ومع ذلك وقع ديتريش في صراع داخلي عميق، من ناحية لم يكن يريد التخلي عن الأمان البرجوازي ومحاولته في نفس الوقت أن ينفصل عنه. فهو يتمسك بالعالم الذي منه أتي ويريد القفز منه، يريد أن يكون عَالِم معترف به وفي نفس الوقت متمرد وَرِع، لا وزن عنده لشئ سوى كلمة الرب. أراد أن يكون ابنًا مُطيعًا، وأن يجد مكانًا له في العالم. أيمسك بأحدهم ويترك الآخر؟ أم يستطيع الجمع بينهما؟

[22] ديتريش بونهوفر: يسوع المسيح وجوهر المسيحية، المجلد 10، ص. 315

حاول ديتريش أن يظل الطالب المتفوق. أنجز ثمانية دورات دراسية وكتب عددًا كبيرًا من الأبحاث في ثلاث سنوات دراسية، بالإضافة لأطروحة الدكتوراه, لكن كل هذا لم يكن بالنسبة له مجرد مسألة أكاديمية.[23] فعندما يكتب عن أحوال مارتن لوتر النفسية، يُدرك المرء أن هذا الشخص يستحضر هنا قضايا حياته الخاصة. تأرجح لوتر بين قمة البهجة لكونه موظفًا وبين الشكوك الذاتية المُدمرة. وكان ديتريش يعلم ذلك. فقد كتب عن "الأعداء الداخليين"، هم أسوأ من الأعداء الخارجيين. عرف القليلون أو ربما شعروا أن ديتريش كان يعاني وبشكل مستمر من الإكتئاب.[24] في شارع "فاجنهايم" حيث منزل العائلة، لم يتحدث في مثل هذه المشكلات الشخصية.
على المرء أن يفصل في ذلك مع نفسه بنفسه.

وحيدًا كان ديتريش أيضًا بخصوص شكوكه حول دراسته، عندما خاطر مرة بالتعبير عنها في أحد الأبحاث، حصل الناجح المُدلل على الفور على أسوأ الدرجات. انتقد ديتريش المنهج العلمي الذي يتعاطى مع الكتاب المُقدس بوصفه نصًا تاريخيًا. قائلاً، انه لم يتبقى هناك سوى أطلال من الخرائب مع "مخلفات قديمة وشظايا".[25] ما كان ديتريش يبحث عنه لم تكن معرفة غير مُلزمة، معها يجب أن ينحي وجوده الشخصي جانبًا. كان يبحث عن كلمة الرب الحية، التي على أساسها يستطيع دعم حياته ويثبت خلاصه. تبقى كلمات الرب التي يؤمن بها ميته، عندما ينظر لها فقط بوصفها معلومات عن أحداث ماضية، ولا يُدرك الفكر خلف ذلك، الذي يمكنه تغيير حياة الإنسان في أي وقت. وفقًا لأراء مَثله الأعلى الجديد قال ديتريش، أن كلمة الرب غير قابلة للاستدلال عليها، بل هي قابلة للتجربة والاستشهاد بها. فهناك وحي، حيث يسمعه الإنسان، حيث تصبح كلمة الإنسان كلمة الرب، حيث يصبح الزمان سرمديًا.

كان ديتريش قد كتب بحثًا عند أستاذ علم العقيدة "راينهولد زيبرج". كان زيبرج أحد الداعين للحرب المتحمسين، لا مثيل له في تمثيل التحالف الشرير بين الدين والقومية. دون عدة علامات إستفهامية على هامش البحث وألحقها بـ "لا". الأمر المثير للدهشة، أن ديتريش قد اختاره مشرفًا على رسالة الدكتوراه، وذات مرة أثناء التجوال معًا أقتنع زيبرج وبكل مُفاجئ وبدهشة من قدرات ديتريش. ربما كان مَرد هذا التغير في المشاعر إلى كون زيبرج على معرفة بوالد ديتريش، وانه تحدث معه بالتفصيل حول أبنه. كذلك وافق زيبرج على موضوع رسالة الدكتوراه المخطط لها. كان ديتريش يريد أن يكتب عن "المجتمع الديني"

بعد عام ونصف من العمل كان بين يدي زيبرج كتابًا ضخمًا بعنوان Sanctorum Communio أي "مجتمع القديسين". يمكن القول، أن العمل كان خليطًا من أفكار هارناك وبارت. من بارت استلهم فكرة الإله البعيد. كان الأهم بالنسبة لديتريش قضية، كيف وأين يتجلى هذا الإله، والذي يتحول وفق مشيئته إلى إنسان ويظهر في واقع ملموس. كانت إجابته، ليس الإنسان الفرد بمشاعره الدينية، بل الكنيسة بوصفها جماعة المؤمنين. ما يميز هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات الأخرى كالنادي الرياضي أو الحزب السياسي، أو الاسرة أن هنا لا يوجد هدف يجمع الأعضاء حوله، بل تتجلى روح الرب. بالنسبة لديتريش هو حقيقة لا يمكن إثباتها موضوعيًا، لكنه منفتح على الجميع" من له عينان فليرى ومن له أذنان فليسمع".[26] كانت الحقيقة الإيمانية بالنسبة لديتريش حقيقة ملموسة ومرئية. علاوة على ذلك كان الواقع الذي شكلته العناية الإلهية للعالم بالنسبه له هو الواقع الفعلي، وبدون الإيمان بهذه الحقيقة لا توجد مسيحية.

[23] رسالة إلى كارل فريدريك بونهوفر بتاريخ 14 يناير 1935، رقم 193، ص. 272
[24] ديتريش بونهوفر: دراسة حول أحوال مارتن لوتر النفسية في سياق أعماله، المجلد 9، ص. 290
[25] ديتريش بونهوفر: دراسة حول الوضعية التاريخية والروحية للنص، المجلد 9، ص. 307 و 318
[26] المصدر السابق،صز 305

© 2018 Litrix.de

الشئ المميز في هذا المجتمع الكنسي هو كونه على الرغم من أن الجميع متحد من خلال الروح، لكن الفرد لا يختفي في الجمع، بل على العكس من ذلك، بالنسبة لديتريش فإن الكنيسة هي فقط المجتمع الحقيقي ، عندما تحافظ على تفرد شخصية كل إنسان بقدر الإمكان. ويقول ديتريش: " إن الله لا يريد مجتمعًا يمتص في داخله الفرد، بل مجتمعًا من البشر.[27]

لا ينبغي عزل هذا المجتمع الكنسي عن الدولة والثقافة، لكن ينبغي أيضًا ألا تذوب فيه. فمن خلال تمثل الكنيسة لكلمة الرب ستبقى جهة حاسمة في مواجهة السياسة والمجتمع. فهل من الممكن تصور أن المجتمع الكنسي يفقد مدلوله ولا تُنصف واجباته في الحفاظ على قيم الكتاب المقدس؟ يؤكد ديتريش هذا السؤال. أخيرًا الإنسان مُلتزم فقط بالله وما الكنيسة إلا وسيط. سيتمزق الرابط بالكنيسة، إن هي وقفت في طريق الإرتباط المطلق بالله.[28]

كان موضوع المجتمع والكنيسة موضوعًا مهمًا لديتريش، لارتباطه المؤكد بتجاربه في روما، لكنه أيضًا تعبير عن شوقه للقرب والصداقة. وقد قدمت له الدراسة الفرصة ليس فقط في التفكير حول المجتمع بشكل نظري، لكن أيضًا بالتجربة العملية. في كنيسة "جرونفالد" تولى ديتريش مهمة إقامة القداس الإلهي للأطفال. ديتريش الذي كان يبدو متحفظًا ومُغلقًا، بدا هنا محبوبًا للأطفال. الآن وضح جدوى درس الدين الذي كانت تلقنه الأم. كما كانت تحكي له قصص الكتاب المُقدس من خلال الإثارة والغموض كالحواديت. يدعو ديتريش كبار السن إليه في المنزل القائم بشارع "فاجن هايم" حيث يتحدثوا عن الله والعالم ويعزف لهم على البيانو.

كان ديتريش يشعر بين البالغين بصعوبة الإنفتاح عليهم، فهو لا يتباسط مع أحد في الحديث خارج محيط الأسرة. "إبرهارد بتجى" الذي أصبح فيما بعد أفضل صديق له إن لم يكن الصديق الوحيد، وصف ديتريش بأنه إنسان عاش طيلة حياته وحيدًا. كان ديتريش يعرف هذه الوحدة ويدافع عنها، بل كان يُحذر من الانضمام لجماعة ما عندما لا يستطيع المرء أن يكون وحيدًا. فيما يتعلق بإنسان آخر بقي له، أخر بقايا الغربة. هذه الغربة يجب أن تُحترم، حيث تمنع الأخرين من الاقتراب. هي حدود يجب عدم تجاوزها.

هل ضيق ديتريش هذه الحدود على نفسه؟ على كل حال لقد حالت دون حدوث نهاية سعيدة لأول حب كبير له. كانت تُدعى "إليزابيث تسن" ، وكانت تصغره بعام، وهي إحدى النساء اللواتي درسن علم اللاهوت البروتستانتي. كانا يحبان بعضهما جدًا، يذهبان سويًا إلى المسرح وإلى المعارض. يتحدثان كثيرًا في علم اللاهوت والفن، لكن لم يتحدثا قَط عن مشاعرهما. لم يتعلم ديتريش هذا، هكذا حدث، أنهما متحابان، لكن أي منهما لم يكن يعلم أن الآخر يحبه. أستمر الحال على هذا المنوال سنوات طويلة، وعندما صرحا أخيرًا عن مشاعرهما، كان الأوآن قد فات. هكذا أدى عدم البوح إلى اغتراب بينهما.. كتب ديتريش فيما بعد عن ذلك : لقد قلت لها " لقد عشنا معًا في الماضي لفترة طويلة، لكن كل منا فهم الآخر على غير حقيقته، ولم نستطع أن نتفاهم. بعد عامين تزوجت، وخف الحمل المُلقي عليَّ تدريجيًّا. ولم يرى أحدنا الآخر ولم نتراسل. لقد شعرت في ذلك الوقت أنه إذا كان على الزواج فيجب أن تكون فتاة تصغرني بكثير [...]".[29]

[27] ديريش بونهوفر: مجتمع القديسين، المجلد الاول، ص. 51
[28] المصدر السابق، ص. 173
[29] رسالة إلى ماريا فيدماير بتاريخ 29 مايو 1944، رسائل العروس، ص. 190

في منتصف ديسمبر 1927 حصل ديتريش بونهوفر على درجة الدكتوراه مع أعلى تقدير ممكن " امتياز". كان عُمره آنذاك واحد وعشرين عامًا فقط، وبعد عدة أسابيع اجتاز أول أختبار كنسي، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامه، إما للعمل الأكاديمي في الجامعة أو الذهاب للخدمة في الكنيسة. من المُسلم به أن أسرته أقترحت عليه أن يواصل ليكون أستاذًا جامعيًا. دينريش نفسه لم يكن واثقًا. وقد تشاور لأمسيات طويلة مع والديه. ومع ذلك كان لديه شعور بأن أهم نقطة لا يتم ذكرها.: من المهم بالنسبه له "أن يبدأ من البداية".[30] حتى الآن وفىَ بما توقعه أبواه منه. كُل شئ وضح من تلقاء نفسه، بدون أن يقرر بجلاء نعم أم لا. كتب في دفتر يومياته: " لقد لفت نظري مرارًا في الفترة الأخيرة أن كل القرارات التي أضطررت لإتخاذها لم تكن قراراتي أنا".[31]

في شهر نوفمبر 1927 كان قد اتصل المشرف العام في برلين "ماكس ديستل" بديتريش تيلفونيًا ليسأله، فيما إذا كان يريد السفر إلى برشلونه بوصفه كاهنًا. لم يستطع ديتريش أن يقرر، لكنه وعي بشكل غريزي أنها فرصة أتيحت له ويجب أن يغتنمها، كي يخرج من دائرة الحياة المعتادة. كان هناك حفل وداع واحد بعد الآخر، وقام ديتريش بالعديد من الزيارات. وفي الثامن من فبراير 1928 حان وقت السفر. تجمع الوالدان وجميع الأشقاء في حفل وداع في منزل العائلة في شارع "فاجن هايم". وفي الساعة العاشرة مساءً استدعوا سيارتي أجرة، وحملتا جميع مرافقي ديتريش إلى محطة القطار. باستثناء الجدة بقيت في البيت. كان وداعها لديتريش بشكل خاص صعبًا للغاية. على رصيف القطار، كان ما يزال هناك بعض الدموع، ولُوح بالمناديل، وفي الساعة الحادية عشرة دوت صفارة القطار وبدأ في التحرك.

قبل أكثر من عام من سفر ديتريش، في التاسع من نوفمبر 1926 كان هناك رجلاً قصيرًا ذو عرج يغادر القطار في محطة برلين. كان يوسف جوبلز، الذي كان قد عُين من قبل هتلر مسؤولاً حزبيًا لإقليم برلين، بمهمة إخضاع هذه المدينة الحمراء التي يسيطر عليها الشيوعيين لسيطرة حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي. كان الإشتراكيون القوميون (النازي) عبارة عن مجموعات صغيرة متفرقة لا يلتفت إليها أحد. أعد جوبلز المقر المركزي للحزب في شارع بوتسدام وسط المدينة، وبدأ في السيطرة على الشوارع بمساعدة كتائب العاصفة (وهي كتائب شبه عسكرية تابعة للحزب النازي تكونت نواتها الأولى عام 1920، ساهمت في صعود الحزب والسيطرة على مفاصل الدولة وحماية الاجتماعات الحزبية وقتال المناوئين– المترجم).

كان لجوبلز "عقيدة" خاصة: " يجب على المرء أن يكون له هدف، وعندما يكون المرء صلبًا بما فيه الكفاية ومتعصبًا يؤمن بهذه الفكرة يُمكن تحقيقها. هكذا كانت قناعته.
تبعًا لذلك كان المبدأ الذي إنتهجه جوبلز في غاية البساطة. لديه هدف وهو جعل الإشتراكيين القوميين أقوى قوة في العاصمة الألمانية. كل طريقة تخدم هذا الهدف هي جيده، وكل طريقة لا تخدمه هي سيئة. حتى أنه ترك أفراد قوات الصاعقة يجولون في المناطق الحمراء في المدينة وهم يغنون وحاملين رايات الصليب المعكوف، بهدف إثارة المشاجرات، كي تتصدر عناوين الصحف بالخط العريض. فقد الطالب "هورست فيسيل" حياته في إحدى هذه الحوادث. وجعل منه جوبلز أول شهيد للاشتراكيين القوميين. في انتخابات المجلس النيابي الألماني (الرايخستاج) التي أجريت في العشرين من مايو 1928 حصل حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي على نسبة 2.6 في المئة. لقد كانت نسبة ضئيلة، لكنها سمحت بدخول أثنى عشر عضوًا برلمانيًا من أعضاء هذا الحزب إلى الرايخستاج. وبوصفهم أعداء لجمهورية فايمار فقد

[30] ديتريش بونهوفر، دفتر يوميات اسبانيا، ص. 20
[31] المصدر السابق

سَعوا لتخريب الديموقراطية من الداخل. "كما يتسلل الذئب إلى قطيع الأغنام، هكذا نتقدم". هذا ما أعلنه يوسف جوبلز آنذاك في صحيفة الحزب "هجوم".

أدان بونهوفر فيما بعد "العقيدة" كما عبر عنها يوسف جوبلز. بالنسبة له لم يكن الخير هو النافع والمفيد. وكلمة الرب ليست فكرة. كلمة الرب تحترم المقاومة وتعرف الضعف. على العكس من ذلك تتطلب الفكرة المتعصبين، الذين لا يعرفون المقاومة ولا يحترمونها.[32] بالنسبة لبونهوفر، يعاني كل متعصب من مرض التململ، الذي يقودة إلى عدم الهدوء حتى تتحقق فكرته، والوصول لهدفه، حتى وإن وجب عليه السير على الجثث.

بيان المصادر

تم الإستشهاد بالنصوص والخطابات والخُطب الوعظية وما إلى ذلك لديتريش بونهوفر وفقًا للطبعة الخاصة لأعماله الكاملة، والتي ضَمت سَبع عشر مُجلدًا، ميونخ، 2015 Gütersloher Verlagshaus

المُجلد الأول (باللاتينية): مجتمع القديسين
المُجلد الثاني: العَمل والوجود
المُجلد الثالث: الخلق والسقوط

[32] ديتريش بونهوفر، الخلافة، المجلد الرابع، ص. 180

© 2018 Litrix.de

المُجلد الرابع: الخِلافة

المُجلد الخامس: الحياة المُشتركة، كِتاب الصَلوات من الكِتاب المقدس

المُجلد السادس: الأخلاق

المُجلد السابع: شَذرات من تيجيل

المُجلد الثامن: المقاومة والأستسلام

المُجلد التاسع: الشباب والدراسة 1918– 1927

المُجلد العاشر: بارشلونه، برلين، أمريكا 1928– 1931

المُجلد الحادي عشر: المسكونية، الجامعة، الأسقفية 1931

المُجلد الثاني عشر: برلين 1932– 1933

المُجلد الثالث عشر: لندن 1933– 1935

المُجلد الرابع عشر: تدريب لاهوتي غير قانوني، فينكنفالده 1935– 1937

المُجلد الخامس عشر: تدريب لاهوتي غير قانوني، الدائرة الكنسية 1937– 1940

المُجلد السادس عشر: التآمر والإعتقال 1940– 1945

المُجلد السابع عشر: فهارس وجداول.

© 2018 Litrix.de